نصوص مختارة

من العصر العباسي الثالث

(٤٤٧ - ٦٥٦ هـ)

اختيار ونقد

الدكتور محمد السعدي فرهود

المدرس في كلية اللغة العربية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م

مطبعة الرسالة

٣ شارع حودة المقاول — عابدين

القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين

وبه نستعين

اخترت هذه النصوص ؛ ليدرسها الطلبة فى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، ووضعت حول كل نص عدداً من الملاحظات والنقود ، نحاول من خلالها التعرف على فكرة النص ، وعناصره المكونة له ، وصوره ، وما تكشف عنه من ملامح المنشئ ، ومناحى ثقافته ، ومجالى فكره ، وخصائص أدبه ، ومدى تأثره ببيئته ، ودوره الذى أتيح له أن يؤديه على مسرح التطور الأدبى .

ولقد وددت أن أكل إلى الطلاب البحث فى « المعاجم » عما يصادفونه من مفردات صعبة ، لولا خوفى من أن تشغلهم عنه شواغل ؛ ولذا آثرت أن أتولى عنهم هذا العبء ، فلعلهم يفيدون منه ، عندما يتمرسون بالنظر فى النصوص ، وشرحها ، والعبارة عنها بأساليبهم .

على أنى أرى فى صعوبة المفردات أمراً نسبياً ، فقد كانت لدى المتكلمين بها والمتذوقين لها — فى زمانهم — أيسر شىء عليهم ؛ لأنهم كانوا يتداولونها . واللغة — أى لغة — تحيا بالاستعمال ، وتموت بالإهمال .

ونحن الآن نتنادى بالقومية العربية ، ووحدة الأمة العربية . واللسان العربى الفصيح هو الجامعة التى تجمع كلمتنا ، ونظرنا فى لغة أجدادنا حياة للعربية الفصحى ، وحياة للقومية المنشودة ، وسبيل إلى وحدة الكلمة ، ووحدة الأمة .

ونسأل الله — تعالى — التوفيق والرشاد ؟

القاهرة { شعبان ١٣٨٨ هـ
نوفمبر ١٩٦٨ م

السعدى

النص الأول

المقامة «الشيرازية» للحريرى

« حكى الحارث بن همّام ، قال : مررتُ فى تَطوافى بشيراز ، على نادٍ يَستوقف المُجتاز ، ولو كان على أوفاز[١] ، فلم أستطع تعدّيه ، ولا خَطَتْ قدَمى فى تخطّيه[٢] ، فعُجت إليه لأسْبُك سرّ جوهره ، وأنظرَ كيف ثَمَرُه من زَهَرِه[٣] ، فإذا أَهْلُه أفراد ، والعائجُ إليهم مُفاد[٤] ، وبينما نحن فى فكاهةٍ أطربَ من الأغاريد ، وأطيبَ من حَلَب العناقيد[٥] ، إذ احتفّ بنا ذو طِمْرَين ، قد كاد يُناهز العُمْرَين[٦] لحيّا بلسانٍ طليق ، وأبان إبانةَ مِنطيق[٧] ، ثم احتبى

(١) التطواف : الدوران. شيراز : إحدى مدن فارس. يستوقف المجتاز : يدعوه للوقوف والمجتاز هو المار . أوفاز : جمع وفز(بفتح فسكون) وهو العجلة . ويقال: أوفزت فلانا أى أعجلته ، واستوفز فلان فى قعدته أى قعد غير مطمئن . وتكون أوفاز جمع وفز (بفتحتين) وزان أسفار وسفر وزنا ومعنى .

(٢) تعديه : مجاوزته . خطت قدمى : أى تخطت . تخطيه : أى مفارقته .

(٣) عجت إليه : ملت إليه . أسبك : أختبر .

(٤) أفراد : أى لا نظير لهم فى صفاتهم وسماتهم . العائج : المائل والواقف . مفاد : أعطى الفائدة .

(٥) فكاهة : يقصد بها الحديث الحلو . الأغاريد : جمع أغرود وهو الغناء. حلب العناقيد : كناية عن الخمر .

(٦) احتف بنا : أى توسطنا لأنه إذا صار فى وسط القوم كانوا محيطين به . ذو طمرين : صاحب ثوبين باليين . يناهز العمرين : يبلغهما ، والعمران فيما يقال : عمر الزيادة وعمر النقص ، فالأول حتى سن الأربعين يكون الانسان فى ازدياد ونماء وقوة ، وعمر النقص من الأربعين إلى الثمانين ، فإذا بلغ الانسان الثمانين فقد استوفى العمرين .

(٧) لسان طليق : فصيح. منطيق : ذو نطق فصيح .

حُبْوَة المنتدِين ، وقال : اللهمّ اجعلنا من المُهتدِين[٨]، فازدراهُ القومُ لِطِرّيه ، ونَسُوا أن المرء بأَصْغرَيه[٩] ، وأخذوا يتداعَوْن فَصْلَ الخطاب ، ويعتدُّون عُودَه مِن الأَحْطاب[١٠] ، وهو لا يُفِيص بكلمة ، ولا يُبين عن سِمة[١١] ، إلى أن سَبَرَ قرائحَهم ، وخَبَرَ شائلَهم وراجحَهم[١٢] ، فحين استخرَج دفائنَهم ، واستَنْثَل كنائنَهم[١٣] ، قال : ياقوم ، لو علمتم أن وراء الفِدَام ، صَفْوَ المُدام[١٤] ، لما احتقرتم ذا أَخلاق ، وقلتم : ما لهُ مِن خَلاق[١٥] ، ثم فَجّر مِن ينابيعِ الأدب ،

---

(٨) احتبى : جلس على عجيزته ورفع ساقيه وشبك عليهما بيديه . المنتدين : المجتمعين في النادى وهو المجلس .

(٩) ازدراه القوم : استحقروه . أصغريه : الأصغران القلب واللسان ، والمرء بأصغريه أى أنه يقوم بهما ويكمل .

(١٠) يتداعون : أى يدعون . فصل الخطاب : أى البيان المشتمل على الأحاجى والألغاز .

وجملة يعتدون عوده من الأحطاب بمعنى أنهم يعدون جيده رديئا لفرط فصاحتهم وبلاغتهم .

(١١) يفيص : يبين . سمة : علامة .

(١٢) سبر قرائحهم : اختبرها ، والقرائح : الأفهام . شائلهم وراجحهم : أى ناقصهم وكاملهم أو عاطلهم وفاضلهم ، وأصلها من كفتى الميزان إذا رجحت إحداهما شالت الأخرى وهى الناقصة .

(١٣) دفائنهم : يقصد ما خفى من أمورهم . استنثل كنائنهم : استفرغها ، والكنائن فى الأصل جمع كنانة وهى جعبة السهام وكنى بها عن معارفهم .

(١٤) الفدام : سداد القارورة . المدام : أى الخمر الصافية .

(١٥) ذا أخلاق : صاحب ثياب باليات . خلاق : نصيب من الخير ، وفى الكتاب الكريم « وماله فى الآخرة من خلاق » .

والنُّـكَت النُّخَب ، ما جَلَبَ به بدائعَ العَجَب ، واستوجب أن يُكتب بذَوْب الذهب[١٦] ، فلمّا خَلَبَ كلَّ خِلْب ، وقَلَبَ إليه كلَّ قَلْب[١٧] ، تَحَلْحل ؛ ليرحل[١٨] ، وتأهّب ؛ ليذهب[١٩] ، فعَلِقَت الجماعةُ بذَيْله ، وعاقَتْ مَسْرَبَ سَيْله[٢٠] ، وقالت له : قد أريتَنا وَسْمَ قِدْحك ، فخبِّرنا عن قَيْضِك ومُحِّك[٢١] ، فصمَتَ صُموتَ مَن أُفحم ، ثم أعْوَل حتى رُحِم[٢٢] .

قال الراوى : فلما رأيتُ شَوْبَ أبى زيد ورَوْبَه ، وأُسلوبَه المألوفَ وصَوْبَه[٢٣] ، تأملتُ الشيخ على سُهُومةِ مُحيَّاه ، وسُهُوكَة ريَّاه ، فإذا هو

---

(١٦) الينابيع : فى الأصل جمع ينبوع وهو العين الجارية . النكت النخب : النوادر المختارات من الكلام .

(١٧) خلب : خدع . كل خلب : أى كل ذى خلب ، والخلب الحجاب الذى بين القلب وسواد البطن .

(١٨) تحلحل : تحرك . يرحل : يزول عن مكانه .

(١٩) تأهب : استعد .

(٢٠) علقت : تعلقت . ذيله : طرف ثوبه . عاقت : منعت . مسرب سيله : أى مجراه .

(٢١) وسم قدحك : علامته . والقدح (بالكسر) : السهم . قيضك ومحك : يقصد ظاهر أمره وباطنه ، وأصل القيض قشر البيضة اليابس (والقيق قشرها اللين الذى تحت القيض) والمح صفار البيضة .

(٢٢) أفحم (بالبناء للمفعول) : أسكت لانقطاع حجته . أعول : بكى بصوت .

(٢٣) شوبه وروبه : يقصد صدقه وكذبه ، والشوب العسل والروب اللبن الرائب . أسلوبه : فنه فى كلامه . صوبه : يقصد كثرة معارفه ، وأصله نزول الغيث .

إيّاه[٢٤] . فكتمتُ سرّه ، كما يُكتم الداء الدخيل ، وسترتُ مكره ، وإن لم يكن يخيل[٢٥] ، حتى إذا نزعَ عن إعواله ، وقد عرَفَ عثوري على حاله[٢٦] ، رمقني بعين مِضحاك ، ثم طفِقَ يُنشد بلسانٍ مُتباك[٢٧] :

أستغفرُ اللهَ وأعنو له ... من فرطاتٍ أثقلتْ ظهريه[٢٨]

يا قوم كم من عاتقٍ عانسٍ ... ممدوحةِ الأوصافِ في الأنديه[٢٩]

قتلتُها لا أتقي وارثا ... يطلبُ منّي قوَداً أوْ ديه[٣٠]

وكلما استُذنبتُ في قتلها ... أحلْتُ بالذنب على الأقضيه[٣١]

---

(٢٤) سهومة محياه : تغير وجهه من وعثاء السفر . سهوكة رياه : قبح رائحته والسهك : الرائحة الكريهة تجدها في الانسان إذا عرق ، وقيل : السهك ريح السمك أو صدأ الحديد . والريا : الرائحة .

(٢٥) الداء الدخيل : الداء الباطن الذي لا يمكن المريض أن يتفوه به استقباحا الحديث عنه . يخيل : يشتبه ويلتبس .

(٣٦) نزع عن إعواله : كف عنه ، والإعوال البكاء بصوت . عثوري : أي اطلاعي

(٢٧) رمقني : نظرني . مضحاك : كثير الضحك . متباك : متكلف البكاء ، وهو الذي يظهر أنه يبكي وليس بباك .

(٢٨) أعنو : أخضع . فرطات : جمع فرطة وهي الزلة والسقطة وسابقة الذنب .

(٢٩) العاتق : الشابة التي أدركت وهي بكر . العانس : البكر التي كبرت في بيت أبيها ولم تتزوج . ويقصد الخمر الصرف العتيقة .

(٣٠) قتلتها : من قتل الخمر وهو مزجها بالماء القود : القصاص بقتل القاتل عمدا. الدية : المال يدفعه القاتل إلى أهل القتيل .

(٣١) استذنبت: نسبت إلى الذنب. الأقضية : جمع قضاء ويقصد قضاء الله وقدره .

وَلَمْ تَزَلْ نَفْسِيَ فِى غَيِّهـــا وقَتْلها الأبكارَ مُستَشرِيه(٣٢)
حتى نَهانِى الشيبُ لمّا بَدَا فى مَفرِقٍ عن تلكُمُ المعصيه
فلم أُرِقَ مُذْ شابَ فَوْدِى دمًا مِن عاتقٍ يوماً ولا مُصْبيه(٣٣)
وها أنا الآنَ على ما يُرى مِنّى ومِن حِرْفتى المُكْدِيه(٣٤)
أَرُبُّ بِكْرًا طال تعنيسهـــا وحَجْبُها حتى عن الأهويه(٣٥)
وهى على التعنيس مخطوبةٌ كخِطبة الغانيـةِ المُغنية(٣٦)
وليس يَكفينى لتجهيــزها على الرضا بالدُّون إلا ميهَ(٣٧)
واليـــدُ لا تُوكِى عَلَى درهم والأرض قفرٌ والسما مُصحيه(٣٨)

---

(٣٢) فى الغىّ : ضلالها . الأبكار : جمع بكر ويقصد منها أنواع الخمر . مستشرية : متمادية ، من استشرى الفرس فى عدوه إذا لج وتمادى .

(٣٣) الفود : جانب الرأس من أعلى الصدغ . مصبية : ذات صبية . ويراد بالعاتق الخمر الحديثة وبالمصبية الخمر القديمة .

(٣٤) الحرفة : الشغل الذى يتكسب منه . المكدية : قليلة الغناء من أكدى الرجل إذا قل خيره .

(٣٥) أرب وأربى بمعنى تعنيسها . تعنيس الخمر مكثها فى الدن . الأهوية : جمع هواء وهو ما بين السماء والأرض .

(٣٦) الغانية : المرأة الجميلة التى غنيت بجمالها عن الزينة . المغنية : الكافية عن غيرها .

(٣٧) ميه : هى المائة (١٠٠) بالحساب وكانوا يتعاملون بالدينار وبالدرهم .

(٣٨) اليد لا توكى على درهم : لا تقبض عليه . والوكاء خيط يشد به فم القربة . السماء مصحية : أى انجلى غيمها .

فهل مُعينٌ لى على نَقْلها مصحوبةً بالقَيْنة المُلهيه(٣٩)
فيغسلَ الهمّ بصابونهِ والقلبَ مِن أفكاره المُضنيه(٤٠)
ويَقتني مِنّى الثناء الذى تَضُوعُ رَيّاهُ مع الأدعيه(٤١)

قال الراوى : فلم يبق فى الجماعة إلا من نَديَتْ له كفّه ، وانباع إليه عُرْفُه(٤٢)، فاما نجحتْ بُغيتُه ، وكَمُلت مائتُه(٤٣) ، أخذ يُثنى عليهم بصالح ، ويُشمِّر عن ساقٍ سارح(٤٤) ، فتبعته لأستعرفَ ربيبةَ خِدْره ، ومَنْ قَتَلَ فى حِدْثان

---

(٣٩) القينة : الأمة مغنية أو غير مغنية . الملهية : أى المطربة .

(٤٠) صابون الهم : الخمر أو النبيذ . قال الشاعر :

وكنت إذا الحوادث دنستنى فزعت إلى المدامة والنديم
لأنى بالكؤوس الهم عنى لأن الراح صابون الهموم

ويجوز أن يكون مراده من صابون الهم : الذهب فإنه يغسل هم الفقر .
المضنية : المتعبة المهزلة .

(٤١) يقتنى : يدخر . تضوع رياه : تنتشر رائحته . الأدعية : جمع دعاء .

(٤٢) نديت كفه : أى رشحت بالعطاء . انباع إليه عرفه : العرف المعروف ، وانباع إليه أى وصل إليه من البوع وهو مد الباع أو من الباع وهو العطاء والكرم .
قال العجاج :

* إذا الكرام ابتدروا الباع بدر *

أى اذا تسابقوا إلى الكرم سبقهم .

(٤٣) نجحت بغيته : تسهلت وحصلت ، والبغية : المطلوب .

(٤٤) يشمر عن ساق: أى يجتهد . والسارح: الذاهب ، من سرحت الماشية إذا ذهبت إلى المرعى أ.

أمره(٤٥)، فكأنَّ وَشْكَ قيامى، مَثَّل له مَرَامى(٤٦)، فازدلَفَ مِنى، وقال: افْقَهْ عنى(٤٧):

قَتْلُ مِثلى ياصاحِ مَزْجُ المُدام ليس قتلى بِلَهْذَمٍ أو حُسامِ(٤٨)

والتى عُنِّسَتْ هى البِكرُ بنتُ الـ
كَرْم لا البِكر من بَناتِ الكِرام(٤٩)

ولِتجهيزها إلى الكاس والطا س قيامى الذى تَرى ومُقامى(٥٠)

فتفهَّمْ ما قلتُه وتَحكَّمْ فى التغاضى إن شئتَ أو فى الملام(٥١)

ثم قال: أنا عِربيد، وأنت رِعديد، وبيننا بَوْن بعيد(٥٢)، ثم ودّعنى وانطلق، وزوّدنى نظرةً مِن ذى عَلَق(٥٣).

---

(٤٥) الربيبة: بنت الزوجة يربيها زوج أمها. الخدر: البيت وأصله الهودج. حدثان أمره: أى أول أمره وهى مدة الشبيبة.

(٤٦) وشك قيامى: أى سرعته. مثل له مرامى. أى صور له مطلوبى.

(٤٧) ازدلف: قرب. افقه: افهم وزنا ومعنى. وافقه عنى: احفظ.

(٤٨) اللهذم: السنان الحاد. الحسام: السيف القاطع.

(٤٩) الكرم: العنب أو شجره. الكرام: جمع كريم، وكرام الناس أعزاؤهم وشرفاؤهم.

(٥٠) الكاس: القدح من الزجاج، ولا يسمى كأسا إلا وفيه الشراب. الطاس: إناء من فضة أو ذهب أو صفر (نحاس) يشرب به.

(٥١) التغاضى: الاحتمال. (٥٢) عربيد: كثير العربدة، وهى سوء الخلق فى الشراب ونحوه. رعديد: جبان.

(٥٣) فى أمثالهم (نظرة من ذى علق) أى من ذى هوى قد علق قلبه بمن يهواها فهو ينظر إليها نظرة وه.

الجو العام للنص :

هذه المقامة واحدة من مقامات (أبى محمد القاسم بن على الحريرى) الحسين . ومقامات الحريرى حلقة فى سلسلة المقامات ، التى قصد منشئوها منها : التفاصح باللغة ، والادلال بثروتهم اللغوية ، وإحياء المفردات التى انقطعت الصلة بهـا ، وذلك منذ عهد « ابن دريد » الأزدى (٣٢١ هـ) .

والمقامات – كما نعلم – قد أصبحت علما – أو اصطلاحا – على جملة الأقوال التى تروى على لسان امرئ متخيل ، يحكى مواقف متخيلة ، وفيها يضع منشئها على ألسنة شخصياته ألفاظا وعبارات ، يتفاصح فيها ، ويضمنها الحكم والأمثال والأشعار ، ويسوق فيها ألوان « البديع » المطبوعة والمصنوعة .

ملخص النص :

يحكى الراوى أنه مر على ناد فى شيراز ، فالتمس فيه الفكاهة والحديث الحلو بين المنتدين ، وبينما هم كذلك دخل عليهم شيخ رقيق الحال ، فصيح اللسان ، فلم يعره القوم أول الأمر انتباههم ، وازدروه لرثاثته ، وقعد الشيخ صامتا وهم يتكلمون ، حتى عرف أقدارهم البيانية ، فتكلم ، وأظهر مقدرة فى البيان فائقة ، ونقلهم من حال الزراية عليه إلى حال الإعجاب به ، وفى الوقت الذى أظهر فيه الرغبة فى مفارقتهم تعلقوا به واستطاعوا أن يثنوه عن الرحيل عنهم وينزل عند رجائهم ، ولكنه أبدى صمتا وبكاء .

نظر الراوى إلى الرجل نظرة فاحصة ، وتبين له أنه أبو زيد السروجى عينه ، متنكراً .

ولما أدرك هذا قرب انكشاف أمره للراوى قص على القوم قصته التى أوجبت بكاءه ، فقال : إنه كان فى شبابه مغرما بقتل البنات الأبكار ، حتى شاب ، فتاب ، ولم يكن قد ادخر ليوم المشيب ، وها هو ذا اليوم يستجدى : لينفق على جهاز

ابنته المخطوبة ، ويطلب أن يعينوه بمائة دينار (أو درهم) ، وبقينة تخدمها ، فإن يعينوه يطمئن باله ويذهب الهم عنه ، وينصرف ثناؤه ودعاؤه إليهم ، ما داموا أهل إحسان وكرم .

أسرع القوم لمعونته ، وشكرهم الشيخ ، ومدح صنيعهم به .

قال الراوى : إنه تبع الشيخ ليكشف أمره ، ولكن الشيخ الفطن عاجله يفسر له الموقف ، فما أزهق قبل بكرا ، وإنما قتل خمرا ، وعانسه ليست من بنات حواء ، وإنما هى من بنات الكرم ، وقد سعى فى الحصول على المال ليضمن استدامة حظه منها وينفق على شربها . واعترف بأنه عربيد ، ولكنه اتهم الراوى بالجبن ، ثم ودعه وانصرف عنه محبوبا .

النقد :

١ — سارت مقامات الحريرى فى الإطار الذى سارت فيه مقامات بديع الزمان الهمذانى ، فكلاهما بنى معظم مقاماته على الكدية (التسول) عن طريق الأدب والطرف والنوادر والملح ، وإظهار قوة المعارضة ، وخفة الظل ، وسعة الحيلة فى تغفل الناس . كذلك جعل كلاهما مقاماته منافلة بين الراوية ، والبطل : المستجدى ، وصاحب الوقائع ، وكذلك اعتمد كلاهما على التحسين البديعى .

وقد اعترف الحريرى — فى تقديم مقاماته — للبديع بالسبق ، وأنه كان إمامه وقدوته .

٢ — والفرق بين مقامات الرجلين — يبدو لمن يطلع عليهما — فى أن مقامات البديع فى الجملة لم تغرق فى الغريب ، ولم تصنع محسناتها صنعا ، وإنما تركت تجىء عفو الخاطر وغير متكلفة .

أما مقامات الحريرى فقد احتفلت بالألفاظ الغريبة ، وأظهرت عنايته بالتلاعب بالألفاظ ، وبألوان البديع المصنوعة ، وتضمين الأشعار والأمثال .

وإذا كانت مقاماتهما تمثل فنهما وطريقة كليهما الأسلوبية ، فهما أيضاً يمثلان

عصريهما ، فبديع الزمان (٣٥٣ - ٣٩٨ هـ) من أدباء القرن الرابع الهجرى ، الذين أتيح لهم حظ من صفاء الفكر واستيعاب المعانى وحسن عرضها ، وأتيح لهم قدر صالح من الأسلوب الطلى ، المواشى بما يزينه من سجع ومزاوجة وجناس وطباق ، بحيث تأتى زينة حالية ، وتبدو طبيعية غير متكلفة .

والحريرى (٤٤٦ — ٥١٦ هـ) من أعلام القرن السادس الهجرى ، عاش فى عصر قلت فيه الرغبة فى الأدب ، ونقصت الطاقات الفنية ، فتورط أهل العصر فى التزام السجع الملح ، وفى إغراق كتاباتهم بألوان البديع ، فتبدو متكلفة مصنوعة ، ومجلوبة غير مطبوعة .

٣ — خذ مثالا من مقامات البديع ، مطلع المقامة الكوفية . وفيها يقول :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت وأنا فتى السن أشد رحلى لكل عماية ، وأركض طرفى إلى كل غواية ، حتى شربت من العمر سائغه ، ولبست من الدهر سابغه ، فلما أن صاح النهار بجانب ليلى ، وجمعت للمعاد ذيلى ، وطئت ظهر المروضة(١) ، لأداء المفروضة ، وصحبنى فى الطريق رفيق لم أنكره من سوء ، فلما تجالينا ، وخبرنا بحالينا ، سفرت القصة عن أصل كوفى ، ومذهب صوفى ، وسرنا ، فلما أحلتنا الكوفة ملنا إلى داره ودخلناها .. » الخ

ووازنها بمقامة الحريرى تجد واضحا الفرق بين الرجلين ، واختلاف ما بين العصرين . وإذا اطلعت على ألاعيب الحريرى بان لك الفرق أوضح وأبين .

ففى المقامة المراغية رسالة تناوبت كلماتها ما بين لفظ مهمل (خال من النقط) ولفظ معجم (منقوط) ؛ كقوله : « الكرم — ثبت الله جيش سعودك — يزين ، واللؤم — غض الدهر جفن حسودك — يشين ... » الخ

وفى المقامة المغربية عبارات تقرأ طردا وردا ، مثل : « ساكب كاس » ، « فابتدر لحنتى ، صاحب

(١) المروضة : الدابة المذللة السهلة القياد .

ميمتى ، وقال : (لم أخا مل) ، وقال ميامنه : (كبر رجاء أجر ربك) ، وقال الذى يليه : (من يرب إذا بر ينم) ، وقال آخر : (سكت كل من نم لك تكس) ... الخ .

وفى المقامة القهقرية رسالة من « مائتى لفظة تحتوى على أدب وعظة » تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه . وهذه نهايتها : « ودفع الأعداء بكف الأوداء ، وامتحان العقلاء بمقارنة الجهلاء ، وتبصر العواقب يؤمن المعاطب ، واتقاء الشنعة بنشر السمعة ، وقبح الجفاء ينافى الوفاء ، وجوهر الأحرار عند الأسرار . فمن ساقها هـذا المساق ، فلا مراء ولا شقاق ، ومن رام عكس قالبها ، وأن يردها على عقبها ، فليقل : الأسرار عند الأحرار ، وجوهر الوفاء ينافى الجفاء ، وقبح السمعة بنشر الشنعة ... » الخ .

وبلغ من ألاعيبه أنه كتب رسالتين ، سميت إحداها (الرسالة السينية) ، وسميت الأخرى (الرسالة الشينية) ؛ لأن فى كلمات الأولى كلها حرف السين ، وفى كلمات الأخرى جميعها حرف الشين ، بما فى ذلك الشعر ، الذى يبلغ مجموعه فى الأولى ثمانية أبيات وفى الأخرى أحد عشر بيتاً[1] .

٤ ـ لا نستطيع أن نعتبر المقامات عملا قصصيا بالمعنى الذى نعرفه اليوم ، وإنما فيها إرهاص القصة ، ولعلنا لا نعدو الحق حين نتصور فيها مواقف مسرحية ساذجة ، فالذى اطلعت عليه من المقامة الشيرازية يصور موقفا مسرحياً ـ بمعنى أنه صالح لأدائه على المسرح لا أنه صنع له ـ ولك أن تشاهده على الوجه الآتى :

ـ جماعة فى ناد يتضاحكون ويتفاكهون ويتنادرون .

ـ دخل عليهم رجل من أعاثهم ، واندمج فيهم .

---

(١) طالعهما فى ذيل المقامات . ص ٦٠٤ وما بعدها . ط . الحسينية المصرية . سنة ١٣٢٥ هـ .

ـ دخل عليهم شيخ زرى من شمائلهم ، فأحسوا منه نفرة ، وأحسها منهم ، فاقتعد جانباً واحتبى .

ـ مضت الجماعة فيما هم فيه ، وجعلوا يتغامزون بالشيخ .

ـ مضت فترة يرقبهم فيها الشيخ ويتعرف أدبهم .

ـ فاجأهم الشيخ بمنطق خلاب ، بهرهم وانتزع إعجابهم .

ـ رأى الشيخ ما أثمره بازهو فاصطنع رغبته فى فراقهم .

ـ تعلقوا به واستمهلوه ليفيدوا منه وهو يتمنع .

ـ قبل البقاء ، ولكنه حول الجو إلى مناحة .

ـ فى إحدى الزوايا كانت عين الراوى فاحصة قد عرفت الشيخ المتنكر .

ـ تهيأ القوم لمعرفة سبب ما يبكى الشيخ .

ـ حكى لهم حكايته : كان مجرماً سفاكاً ، ولما تاب لم تكن لديه صنعة . وابنته الآن بحاجة إلى تجهيزها عروساً ، فهو يلجأ إليهم ليعينوه .

ـ سرعان ما تبارى القوم فى سد حاجته .

ـ لما قضى أربه وهم بالانصراف لمح بعين الصقر دخيلة الرجل (الراوى) .

ـ انحاز الشيخ إليه وأقنعه أنه إنما احتال على القوم .

ـ وغادر المجلس وفى النفوس منه هوى .

ونحن ندعو إلى أن تعرض المقامات عرضاً مسرحيا ؛ لنتبين أن العرب عرفوا المواقف المسرحية وألفوا فيها .

٥ ـ ونحن نرفض ما عيبت به المقامات من أنها متوحدة المغزى فلا تدور إلا حول اكتساب المال بطرق خسيسة كالشحاذة والاستجداء . فإن النظام الطبقى الذى كان سائداً منع الأدباء من أن يصرحوا بالرأى ويجهروا بالعيب ،

فإذا لجأوا إلى مثل أسلوب المقامات فإنما ليقوا أنفسهم بطش الباطشين ويأمنوا شرهم ، وليجعلوا أعمالهم الأدبية أسير حين يتاح لها أن تدخل بيوت ذوى السلطان ومجتمعاتهم ونواديهم .

٦ - ومن النواحى اللفظية :

(أ) نجد الحريرى احتفل بالجناس والمزاوجة والطباق وسائر المحسنات احتفالا عظيما ، فلا تخلو جملة من حلية لفظية ، وإن أسهمت فى تشكيل المعنى بشكله ، الذى أراده الحريرى من سياقه .

(ب) فى عبارته (تأملت الشيخ على سهومة محياه ، وسهوكة رياه ، فإذا هو إياه) جرى الحريرى - وهو بصرى - على مذهب الكوفة ، الذى يعتمد على رواية أبى زيد الأنصارى أنه حكى عن العرب : (كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو إياها) ، والمناظرة التى جرت بين سيبويه والكسائى حول هذه المسألة فى مجلس يحيى بن خالد البرمكى مناظرة مشهورة ، وسيبويه يرى أن القياس (فإذا هو هى) والكسائى يرى أن الوارد (فإذا هو إياها) . ولقد يعنى الحريرى من اتباعه غير القياس أنه أراد أن يأتى بالسجعة الثالثة فى عبارته .

(حـ) عاب (ابن الخشاب البغدادى)(١) العبارة الأخيرة فى المقامة ، فقال : إنه يعطى فيها خلاف المقصود ، لأن قولهم (نظرة من ذى علق) فسره اللغويون فقالوا : معناه نظرة من ذى هوى قد علق قلبه من يهواه بقلبه وقال الأصمعى : نظرة من ذى علق - مثل يضرب للرجل يرى الشىء يحبه ، فيجتزئ عن معرفته بقليل . وقد دافع (ابن برى) عن الحريرى ، فقال : إنه أراد أنه أودع قلبى حرقاً لم يكن فيه وذلك بسبب مفارقته وزودنى نظرة من ذى هوى وعشق فصار عاشقا بعد أن لم يكن كذلك ، وسبب ذلك مفارقته التى أوجبت له أن صار ذا نظرة من ذى هوى لمن فارقه . ولو كان المعنى ما قاله ابن الخشاب لكان الصواب أن يقول : وزودته نظرة من ذى هوى .

---

(١) راجع رسالة الانتقاد الملحقة بالمقامات ص ٢٦ - الطبعة الحسينية — ١٣٢٥ هـ .

النص الثانى

للإمام أبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ فى الحديث عن وظائف « المعلم »(١) .

« الوظيفة الثامنة : أن يكون المعلم للعلم العملى — أعنى الشرعيات — عاملا بما يعلّمه ، فلا يكذب مقاله بحاله ، فينفر الناس عن الاسترشاد والرشد(٢) ؛ وذلك أن العمل مدرَك بالبصر ، والعلم بالبصيرة(٣) ، وأصحاب الأبصار أكثر من أرباب البصائر ، فلتكن عنايته بتزكية أعماله أكثر منه بتحسين عِلْمه ونَشْره(٤) ، وكل طبيب يتناول شيئاً ، وزجر الناس عنه ، وقال : لا تتناولوه ؛ فإنه سم — يحمل على الهزؤ والسفه(٥) ، واتُّهِم(٦) ، واعتُقِد فيه أنه أنفع الأشياء ، وإنما هو الذى يريد أن يَستأثر به(٧) ، فينقلب النَّهْى إغراء ،

(١) من كتاب ميزان العمل للغزالى ص١٠٣ ط . صبيح . سنة ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٣ م .

(٢) الرشد الصلاح وإصابة الصواب كالرشاد . والاسترشاد : طلبه .

(٣) البصر : حاسة الرؤية ، أو النور الذى تدرك به العين ، وجمعه أبصار . والبصيرة : العلم والخبرة ، وقد تطلق على موطنيهما والجمع بصائر .

(٤) نشره : إذاعته .

(٥) الهزؤ (بضم الهاء وسكون الزاى أو ضمها) : السخرية . السفه : الجهل وخفة الحلم .

(٦) اتهم : افتعل (للمفعول) من وهم ومعناه ظن به ووضعه موضع الريبة وشك فى صدقه .

(٧) يستأثر به : يستبد به ، والاسم الأثرة .

وتحريضاً(٨) .

والمتّعِظ من الواعظ يجرى مجرى الطين من النقش ، والظلِ من العود ؛ وكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ، وكيف يستوى الظل والعودُ أعوج ؛ ولذلك قيل :

لا تنهَ عن خُلُق وتأتىَ مثــله عارٌ عليك ـ إذا فعلتَ ـ عظيمُ(٩)

بل قال الله تعالى : (أتأمرون الناسَ بالبر وتَنْسَوْن أنفسكم) ، ولذلك قيل : وِزْر العالم فى معاصيه أكثر من وزر غيره(١٠) ؛ لأنه يقتدَى به ، فيحمل أوزارا مع أوزاره ، كما قال [النبى] - عليه السلام — : (من سَنّ سُنّةً سيئةً فعليه وِزْرُها ووزرُ مَن عَمِل بها إلى يوم القيامة) .

فعلى كل عاصٍ فى كل معصيةٍ وظيفةٌ واحدة ، وهو تَرْكُها وتَرْكُ الإظهار ، كى لا يتبعه الناس ، فإذا أظهر فقد ترَكَ واجبين ، وإن أَخفى فقد ترك أحد الواجبين ؛ ولذلك قال علىٌ ـــ رضى الله تعالى عنه — : (قَصَم ظهرى رجلان : جاهل مُتنسِّك ، وعالم مُتهتِّك ، فالجاهل يغر الناس بنسكه ، والعالم يغرهم بتهتكه)(١١) .

(٨) الاغراء : مصدر أغرى . تقول أغريت فلاناً بالشىء أى حملته على الولوع به ، وجعله النحويون التنبيه على أمر محمود ليفعله ، ووصفه الأشمونى بأنه التسليط على الشىء . التحريض : الحث والتحميس .

(٩) البيت لأبى الأسود الدؤلى ، وقيل : للمتوكل الكنانى ـ العار : العيب .

(١٠) الوزر : الإثم وزنا ومعنى وجمعه أوزار .

(١١) قصم ظهرى : كسره . متنسك : متعبد والنسك العبادة . متهتك : مفتضح من الهتك وأصله خرق الستر عما وراءه . يغر : يخدع .

الجو العام للنص :

هذا جزء مما كتبه الإمام أبو حامد الغزالى (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) عن مهام المعلم والمرشد ، وقد كان اهتمام الغزالى بالمعلم وبيان وظائفه ووجباته منبعثا من منصبه كإمام دينى له حق التوجيه والرأى ، وكمعلم تولى التدريس فى المدرسة النظامية ببغداد مدة أربع سنوات له حق الإرشاد ، ولنا عليه حق الإفادة من خبرته .

والذى يطلع على كتب الغزالى ، وخاصة : إحياء علوم الدين ، وميزان العمل؛ يقرأ خير ما كتب باللغة العربية فى الأخلاق ، والآداب ، والسلوك ، وبيان حكمة الشريعة الإسلامية فى هذه المسائل ، وفى مسائل من التصوف .

ولذلك تقرأ فى هذين الكتابين وظائف المعلم ، ووظائف المتعلم ؛ فللمتعلم أيضا وظائفه ، وله واجباته وحقوقه ، كما للمعلم ، وإن اختلف وجهاها كاختلاف وجهى الدينار .

ملخص النص :

يفيط الغزالى بالمعلم الصدق النظرى والعملى ، فيطابق قوله فعله ، ولا ينهى عن خلق ويأتى مثله ، وإلا تعرض لنفرة الناس منه ، وشكهم فى علمه ، وانصرافهم عنه ، وولوعهم بما ينهاهم عنه ، والعاقبة أن مثل هذا المعلم يتحمل أوزار القوم ، لأنه واقع فى المعصية .

وقد دلل الغزالى على وجهته بعدة أمور ، تقرؤها فى النص ، ونتعرض لها قريبا .

النقد :

١ — خص الغزالى هذه الوظيفة — وظيفة صدق القول والعمل — بعلم العلم العملى ، وعنى الشرعيات .

والعلوم عند المسلمين قسمان : شرعية ولسانية ، فالأولى علوم الفقه ، وأصوله ،

والكلام ، والتفسير ، والحديث . وهى علوم عملية بمعنى أنها تتصل بأعمال الناس وسلوكهم وارتباطاتهم بالله وبأنفسهم وبمجتمعاتهم .

والعلوم اللسانية هى علوم الأدوات ، التى أنشئت لخدمة القرآن الكريم والحديث الشريف والديانة السمحة ، وتشمل : النحو ، والصرف ، ومتن اللغة ، والبلاغة ، والعروض ، والأدب ، ونقده ، ورواية الشعر ، والتاريخ والنوادر ، والأنساب . وما إليها .

ولاشك فى أن المعلم — أيا كان اختصاصه — بحاجة إلى أن يصدق قولا وفعلا ؛ فهو مثال يحتذيه المتعلمون وقدوة به يقتدون ، ولهم فيه أسوة . ولكن خص الوظيفة بعلم العلم العملى لسببين : أحدهما أن أمور الدين فى قمة اهتمامات الغزالى ، والآخر : أن معلم الشرعيات ألصق بالناس وأكثر اتصالا بالجمهور وملجؤهم للفتيا والتوجيه ، فهو فى مركز دقيق ، ينبغى له فيه أن يكون نموذجا للقول الحسن والسلوك الحسن .

٢ — هذا النص مثل من الكتابة العلمية ، وتعتمد الكتابة العلمية على : (١) وضوح الفكرة (٢) وترتيب جزئياتها (٣) وتنسيقها تنسيقا منطقيا بحيث تسلم كل جزئية إلى ما تليها وتكون كل جزئية نتيجة لما سبقتها أو علة لها (٤) وعرض ذلك كله فى عبارة سهلة دقيقة تعتمد على إيضاح الحقيقة لا على إثارة المشاعر أو مبالغات الخيال .

والغزالى يوفى هذه الأمور — فى مجموعها — حقها ، وهذا يجعل من النص نموذجا فى الكتابة وحده ، لا يحمل خصائص الكتابة الفنية فى هذا العصر والتى أشرنا إليها فى النص السابق .

٣ — وقد أعطى الغزالى عدة أدلة ، توضح فكرته ، وتساعد فى قبولها ، والاقتناع بها :

(أ) لجمهرة الناس – وهم الذين يتولى هذا المعلم أمر تعليمهم – أناس عمليون لا نظريون ، ومن هنا تتعلق أبصارهم بمن يرشدهم ، وليس لديهم مجال التفكير وكد الذهن واستنباط الحقيقة ، فإنما هم يأخذون الآراء والفتاوى مسلمات ، وهذا يقتضى المعلم أن يزكى مقاله بسلوكه .

(ب) مثل المعلم والمتعلم ، كمثل الطبيب والمريض : والطبيب إذا لم يتداوهو نفسه بمثل ما يصف لمرضاه دواء لا يجوز تقديم ، فإذا رأوه يقبل على السم – ولتكن الخمر مثلا – الذى ينهاهم عنه ، مالوا إلى جانب التطبيق العملى فانصرفوا منصرفه وأهملوا سابقة نصحه .

(ح) ومثل المعلم والمتعلم كمثل النقش والطين ، والطين لا ينتقش إلا بمنقاش . وفى يد المعلم أن ينقش على قلوب الناس ما يرى من آثار الخير والشر ، أو أن يمسح عليها ، فلا يهديها سبيلا .

(ء) ومثل المعلم والمتعلم كمثل العود والظل ، لا قيام للظل بدون العود ؛ لأن العود هو الأصل ، فالمعلم إذا كان حاضراً فى علمه وعمله أفاء على الناس منهما ، وإن تقاعس أو تهتك نقلوا عنه .

(ﻫ) وبعد هذه الأدلة الملموسة والمحسوسة ارتقى الغزالى فى الدليل ، فنقل عن أمثال العرب وكتاب الله وحديث الرسول – عليه الصلاة والسلام – وكلام الإمام على – كرم الله وجهه – ما يدعم وجهته ، ويؤيد حجته ، وفسر الآية والحديث تفسيراً ، يزع العاصى عن عصيانه ، ويرد الضال إلى هداه .

وقد جاء التوفيق فى عرض الأدلة وترتيبها من طبيعة فى الغزالى ، ومن نظره فى العقائد كواحد من متكلمى الأشاعرة ، ومن ثقافته المنطقية . ومن خبرته بالتدريس .

النص الثالث

مما كتب ابن أبي الشخباء (أبو علي الحسن بن عبد الصمد) إلى صديقه أبي الفرج الموفقي الكاتب:

« . . . وصلتْ رقعةُ مولاي، والصبحُ قد سَلَّ على الأفق مِقْضَبَه، وأزال بأنوار الغزالة غَيْهَبَه[(١)]، فكانت — بشهادة الله — صُبْحَ الآدابِ ونهارَها، وثمارَ البلاغةِ وأزهارَها، قد توشّحتْ بضروب من الفضل تقصر قاصية المَدَى، ويجرى بها في مِضْمار الأدب مُفْرَدًا[(٢)].

فكأنَّ روض الحُسن تَنشُرُه الصَّبا فأظلتُ في قرطاسها أتصفَّح[(٣)]

فأما ما تضمنتْه من وَصْفي فقد صارتْ حضرتُه السامية تَتَسَمَّح في الشهادة[(٤)] بذلك مع مُناقَشتها في هذه الطريقة، وأنها لا تُوقِع ألفاظَها إلا مواقعَ الحقيقة، فإن كنتَ قد بَهْرَجْتَ عليها فلتراجع نقدها تجدني لا أَستحقُّ من ذلك

(١) المقضب: أداة القضب وهو القطع وأراد بالمقضب النور الذي يقطع ظلام الأفق. الغزالة: الشمس. الغيهب: الظلمة.

(٢) توشحت: ابست. قاصية المدى: بعيدة الغاية. المضمار: الموضع الذي تضمر فيه الخيل أي تعلف حتى تسمن. والمدة التي تضمر فيها تسمى المضمار.

(٣) الصبا: الريح التي تهب من جهة المشرق في الربيع وهي طيبة في بلاد العرب. القرطاس (بكسر القاف وضمها): الذي يكتب فيه. أتصفح: أنظر في صفحاته.

(٤) تتسمح في الشهادة: تتساهل فيها.

الإسهابِ فصلا(٥) ، ولا أَتَدُّ لكلمة واحدة منها أملا ، وبالجملة فالله ينهضنى بشكر هذا الإنعام الذى يقف عنده الثناء ويَضلَع ، ويُحصَر دونه الخطيب المِصقَع(٦) .

هيهاتَ . تُعيي الشمسُ كلَّ مُرامِق ويَعُوقُ دون مَنالها العَيُّوق(٧)...»

(٥) بهرج : من البهرجة وهى أن يعدل بالشىء عن الجادة القاصدة إلى غيرها ، فمعنى بهرجت عليها : عدلت بها عن الحق الاسهاب : إطالة الكلام .

(٦) الشكر : الحمد فى مقابلة الصنيع . الثناء : الوصف بالخير . ويقال : إنه عام فى الوصف بالخير وبالشر . وقد ارتضينا اختصاصه بالخير يضلع : بمعنى يميل من الضلع ، وبمعنى يقوى من الضلاعة . يحصر (بالبناء للمفعول) : يمنع من المضى لأمره . الخطيب المصقع (وزان منبر) : البليغ أو العالى الصوت أو المنطلق فى خطابته لا يرتج عليه مأخوذ من صقع الديك وصقاعه وصقيعه أى صياحه .

(٧) هيهات : كلمة تبعيد . تعيى : مضارع أعيا وأعياه أتعبه وأعجزه . المرامق : من لم يبق فى قلبه من مودتك إلا القليل . يعوق : يحبس ويمنع ويصرف ويثبط العيوق : نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا ولا يتقدمها .

الجو العام للنص :

هذه رسالة إخوانية لكاتب من كتاب الدواوين فى الدولة الفاطمية بمصر (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ، فكتابته تمثل جانباً من الاتجاهات الاقليمية فى مغرب الشرق العربى ، عندما قامت دول تنازع الخلافة فى بغداد ، وتجتذب إليها الأدباء والشعراء والعلماء .

وعندما تولى الفاطميون مصر كانت الكتابة فيها ناهضة ، وقد زاد اهتمامهم بها عقد ما اتسعت دولتهم ، وزادت عنايتهم بالكتاب ، فأنشئوا لهم الدواوين ، وأعطوهم ومنحوهم ، وجعلوا لهم الحجاب والخدم ، وألحقوا بخدمتهم اللغويين

والنحاة ؛ ليراجعوا ما يحرره الكتاب ، فتأتى كتاباتهم خالوا مما يشينها .

وصاحب النص ابن أبى الشخباء (٤٠٥ هـ) أدرك ازدهار الدولة ، وأفاد منه .

ملخص النص :

يجيب الكاتب عن رسالة صديقه ، فيقول : إنها وصلته صباحا وكان له منها صبح آخر ، وجاءت علامة على ما فى صديقه من الفضل والأدب ، وتصفحها وتلاها . وكان فيها وصفه والثناء عليه ، فهو يرجع ذلك إلى أدب الصديق وسماحته ، ويطلب إليه أن يراجع نقدها ، فما الكاتب — فى نظر نفسه — أهل للثناء ، ومع ذلك يرجو أن ينهض بحق الشكر ، وإن كان يقتضى بلاغة عالية للوفاء به .

النقد :

١ — التزمت الكتابة فى عصر الفاطميين السجع وبالغت فى الزينة اللفظية ، وأولعت بالجناس — بخاصة — واقتبست من معانى القرآن الكريم ومن آياته تضمينا .

وقد زاد ابن أبى الشخباء على هذه الخصائص تضمين الشعر سواء أكان له أم لغيره ، كما ترى فى النص .

٢ — فى سبيل التحسين اللفظى ، يكرر عباراته ، فلا يفيدنا معنى جديداً ، وإن أفادتنا صوراً جميلة ، مثل قوله : (والصبح قد سل على الأفق مقضبه ، وأزال بأنوار الغزالة غيهبه) . فكلتا الجملتين بمعنى الأخرى ، ومثل قوله : (لا أستحق من ذلك الإسهاب فصلا ، ولا أعد لكلمة واحدة منها أهلا) فلا فرق بين الجملتين ولا مزية لإحداهما على الأخرى .

٣ — وفى سبيل التحسين اللفظى أيضا تكمل العبارة بما يمكن أن يستغنى

عنه ، مثل قوله : (يقف عنده الثناء ويضلع ، ويحصر دونه الخطيب المصقع) ؟ فربما كان همه أن يثبت وصف الخطيب الذى يعجز عن الوفاء بحق الشكر ، فزاد على الفقرة الأولى ما يكملها وهو لفظ (يضلع) ، وبالنظر يمكن أن نستغنى عنه، فقد وقف الثناء فى لسانه لأنه عاجز عن أن يحركه به ، وكان ينبغى أن يكتفى بهذا ، ولكنه فى سبيل السجع أتى بالفعل (يضلع) وإذا كان بمعنى يميل فقد وضع الحركة بجانب الوقوف وأشركهما فى حكم واحد ، وإذا كان الفعل (يضلع) بمعنى يقوى فقد وضع القوة بجانب الضعف . والمقدور له — كما ارتضى — أنه محصور ممنوع من الحركة ؛ لطغيان الانعام عليه طغياناً لا ينهضه إلى شكره، إلا أن يستعين الله .

النص الرابع

من خطبة دينية للقاضي محيي الدين زكي الدين ، خطبها في أول جمعة صلاها صلاح الدين الأيوبي بعد فتح بيت المقدس :

« .. أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة ، من الأمة الضالة ، وردها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه ، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد فإنه بني عليه ، وبالتقوى فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه ، فهو موطن أبيكم إبراهيم ، ومعراج نبيكم محمد — عليه السلام — وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومقر الرسل ، ومهبط الوحي ، ومنزل تنزل فيه الأمر والنهي ، وهو في أرض المحشر ، وصعيد المنشر ، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين ، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله ، وكلمته التي ألقاها إلى مريم ، وروحه عيسى الذي شرفه الله برسالته ، وكرمه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته ، فقال تعالى : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله)(١) ، وقال : (لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم)(٢) .

وهو أول القبلتين ، وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد بعد

(١) النساء . آية ١٧٢ .
(٢) المائدة . آية ١٧ وآية ٧٢ .

المسجدين الرحال إلا إليه ، ولاتعقد الخناصر بعد الوطنين إلا عليه ، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فى شرفها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوح العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية . جددتم للاسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجزاكم الله عن نبيه محمد — صلى الله عليه وسلم — أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء ، وأثابكم الجنة فهى دار السعداء .

فاقدروا — رحمكم الله — هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله — تعالى — بواجب شكرها ، فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء ، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقربه عينا الأنبياء والمرسلون .. فاحفظوا — رحمكم الله — هذه الوهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم ، بتقوى الله ، التى من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، وموافقة الردى ، ورجوع القهقرى ، والنكول عن العدا ، وخذوا فى انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقى من الغصة ، (وجاهدوا فى الله حق جهاده)(١) وبيعوا — عباد الله — أنفسكم فى رضاه إذ جعلكم من خير عباده ، وإياكم أن يستزلكم الشيطان ، ويتداخلكم الطغيان ، فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد ، وخيولكم الجياد ، وجلادكم فى مواطن الجلاد . لا — والله — ما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم .

واحذروا — عباد الله — بعد أن شرفكم الله بهذا الفتح الجليل ، والمنح

(١) سورة الحج : آية ٧٨ .



الجزيل ؛ وخصكم بهذا الخير المبين ؛ وأعلق أيديكم بحبله المتين ؛ أن تقترفوا كبيراً من مناهيه ، وأن تأتوا عظيما من معاصيه ؛ فتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ·

والجهاد الجهاد ! ؛ فهو من أفضل عباداتكم ؛ وأشرف عاداتكم . انصروا الله ينصركم ؛ واذكروا أيام الله يذكركم ؛ واشكروا الله يزدكم ويشكركم ؛ وجدوا فى حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء .. فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية ، والملة المحمدية .

الله أكبر ! فتح الله ونصر ، وغلب الله وقهر ، وأذل الله من كفر .

واعلموا رحمكم الله — أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ؛ ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها ؛ فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول ... »

الجو العام للنص :

نذر الأيوبيون (٥٦٧ — ٦٤٨ هـ) أنفسهم لحرب الصليبيين ، وصد إغاراتهم على مغرب الشرق العربى ، ومقاومة تطلعاتهم ، وتطهير الأرض من أرجاسهم وكان إمام الأيوبيين فى هذا (صلاح الدين الأيوبى) . فقد أبدى صلابة فى حرب الصليبيين . وحماسة وهمة وضلاعة فى الدفاع عن الدولة الاسلامية ، وألهب مشاعر المسلمين ؛ فانضووا تحت لوائه ، يقاتلون ، ويطلبون إحدى الحسنيين · وقد تم النصر لصلاح الدين على الصليبيين ، واستعاد منهم بيت المقدس ، يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ ·

وخطيبنا يخطب الجمعة عقب هذا النصر العظيم ، فداعية القول متوفرة ، وأسباب الاسترسال والانطلاق حاضرة .

ملخص النص :

بشر الخطيب المسلمين برضوان الله ، لما تم على أيديهم من استرداد بيت المقدس ، الذى أسس على العبادة والتقوى ، فأعادوا إلى الأذهان زمن البطولات الإسلامية الأول ، ودعاهم وقد أنعم الله عليهم بنعمة الفتح أن يقدروها ، وأن يحرسوها بالتقوى ومجانبة الهوى ، وأن يواصلوا جهودهم للدفاع عن دين الله ، وإعلاء راية الإسلام ، وإزاحة الافرنج المعتدين .

النقد :

١ — فى مثل هذا الجو ، كانت تجرى دماء الفتوة فى المسلمين ، بسبب غارات الصليبيين ، مما دعا إلى مقاومتهم ، والحث على القيام فى ميدان القتال ، والحذر من ألاعيبهم ودسائسهم ، والعمل على رد كيدهم ، واستنقاذ الأرض المقدسة منهم وقد ردد الخطباء هذه المعانى ، واستنفروا حمية المسلمين ، واستثاروا حماستهم .

٢ — غير أن الخطابة لم تمكن من القوة والبلاغة على قدر دواعيها ، فلجأت إلى العبارات السهلة ، واكتفت بالمعانى المسطحة المكررة ، واحتفظت بالزينة البديعية ، وأكثرت من الترادف فى الألفاف والعبارات والمعانى ، وتجد ذلك كله فى الخطبة .

٣ — وخطيبنا فرضت ظروف خطبته فى عامة الناس أن ينزل إلى مستواهم الثقافى ، وإن كان من ناحية أخرى ارتفعت معانيه إلى مستوى المناسبة التى دعته إلى أن يخطب .

النص الخامس

لامية الطغرائى

١ ـ أصالةُ الرأى صانتنى عن الخطَل وحِليةُ الفضل زانتنى لدى العطَلِ

٢ ـ مَجْدِى أخيرا ومجدى أوّلاً شَرَعٌ ، والشمس رادَ الضحا كالشمس فى الطفَل

٣ ـ فيمَ الاقامةُ بالزوراء ، لا سَكَنِى بها ، ولا ناقتى فيها ولا جَملى !

٤ ـ ناءٍ عن الأهل ، صِفرُ الكفّ ، منفردٌ ، كالسيف ، عُرّى متناه عن الخِلَل

٥ ـ فلاصديقٌ إليه مُشتكَى حَزَنِى ، ولا أنيسٌ إليه مُنتهَى جَذَلى

---

١ — أصالة : مصدر أصل (من باب ضخم) أى صار ذا أصل قوى ، وأصيل الرأى : محكمه . الرأى : النظر بالفكر فى مبادئ الأمور وعواقبها . الخطل : العوج . العطل (بفتحتين) : الخلو من الزينة .

٢ — المجد : الشرف ، وصاحبه ماجد ومجيد شرع (بفتحتين ويسكن): سواء ، ويستوى فيه الواحد وغيره والمذكر والمؤنث الراد : أول النهار . الطفل : آخر النهار .

٣ — الزوراء : من أسماء بغداد ، وسميت بذلك لازورار قبلتها أى انحرافها . السكن : ما يسكن إليه الإنسان من أهل أودار أو مال .

٤ — ناء : بعيد صفر : خال . متنا السيف : جانباه . الخلل (بكسر ففتح) : جمع خلة (مكسورة الخاء) وهى بطائن منقوشة تغشى بها أغماد السيوف .

٥ — الحزن (بفتحتين) الألم والغم كالحزن (بضم فسكون) . الجذل (بفتحتين) : الفرح .

٦ ـ طال اغترابىَ ، حتى حَنّ راحلتى، ورَحلها ، وقَرا العَسّالة الذُّبُلِ
٧ ـ وضجّ مِن لَغَبٍ نِضوى ، وعَجَّ لما ألقى ركابى ، ولج الركبُ فى عَذَلى
٨ ـ أريد بَسْطةَ كفٍّ أستعينُ بها على قضـــاء حقوقٍ للعُلا قِبَلى
٩ ـ والدهرُ يَعكس آمالى ، ويُقنعنى من الغنيمة بَعد الكد بالقَفَل
١٠ ـ وذى شَطَاطٍ كصدر الرمح ، مُعتقَل
بمثله ، غـــير هيّابٍ ، ولا وَكِل

---

٦ - الراحلة : فاعلة بمعنى مفعولة وهى ما يعده الإنسان لوضع الرحل عليه وهو القتب ونحوه مما يحمل على ظهر البعير ، وتطلق على الذكر والأنثى ولهذا ذكر الفعل لها ، ثم أعاد الضمير فى (رحلها) مؤنثا بحسب مواتاة النظم . القرا (بفتحتين) : الظهر . العسالة والذبل : كلاهما وصف الرماح والواحد عسال (وزان شداد) وذابل ، وسمى الرمح عسالا لعسله أى اهتزازه واضطرابه ، وذابلا لأنه يشبه الغصن الجاف اللين .

٧ — ضج وعج : كلاهما بمعنى رفع الصوت . اللغب (محركا) : الاعياء من سير أو عمل . النضو (بكسر فسكون) : البعير المهزول وجمعه أنضاء الركاب : الإبل التى يركب عليها واحدتها ركيبة أو راكبة بمعنى مركوبة لج : عادى الركب : ركاب الإبل خاصة واحده راكب مثل صحب وصاحب . العذل (بفتحتين) : اللوم .

٨ — البسطة : السعة . العلا (بالضم) : جمع علياء وهى الخصلة المحمودة . قبلى (بكسر ففتح) : جهتى فهو ظرف مكان . الكد : التعب والإعياء .

٩ — القفل (بفتحتين) : الرجوع من السفر .

١٠ - وذى شطاط : الواو واو رب ؛ والشطاط (وزان سحاب): اعتدال القامة . معتقل : الرمح يعتقل إذا وضع الفارس زجه بين ركابه وساقه ناصباً له ممسكا لوسطه بيده . الهياب : مبالغة فى الهائب ، الجبان . الوكل (بفتح فكسر) : العاجز الذى يكل أموره إلى غيره .

١١ ـ حُلو الفكاهة ، مُرّ الجِد ، قد مُزجتْ
بشدة البأس منه رقةُ الغزَلِ

١٢ ـ طرَدتُ سَرْحَ الكرَى عن وِرْدِ مُقْلته ،
والليلُ أغرى سَوَامَ النوم بالمُقَل

١٣ ـ والركبُ مِيلٌ عن الأكوار ، مِنْ طَرِبٍ
صاحٍ ، وآخرَ من خمر الكرى ثَمِلِ

١٤ ـ فقلتُ : أدعوك للجُلَّى ؛ لتنصرني ، وأنت تخذُلني في الحادث الجَلَلِ

١٥ ـ تنامُ عنّي وعينُ النجم ساهرةٌ ، وتستحيلُ وَصِبْغ الليل لم يَحُلِ

---

١١ — الفكاهة : المزاح وطيب النفس . البأس : الشجاعة . الغزل : محادثة النساء وذكر أوصافهن المحمودة .

١٢ — السرح : أصله المال السائم ، والماشية سارح أى سائمة فى المرعى . الورد (بكسر فسكون) : هو الورود . المقة : شحمة العين التى تجمع السواد والبياض ، وجمعه مقل . سوام : جمع غير قياسى لسائمة والقياس سوائم .

١٣ — ميل (بكسر الميم) : مائلون . الأكوار : كور (بفتح فسكون) وهو الرحل . من طرب : من بمعنى بعض ، وطرب صفة من به طرب ، وهو الخفة عند الفرح : ثمل : صفة من يثمل ، والثمل ثقل الأعضاء عند استحكام السكر .

١٤ — الجلى : مؤنث الأجل وتطلق على الأمر العظيم . الجلل : وصف الحقير والعظيم ـ ضد ـ ومراده المعنى الأول .

١٥ — حال يحول : تغير عن طبعه ووصفه ومثله استحال يستحيل فى بعض استعمالاته كما هنا . الصبغ : (بالكسر) ما يصبغ به ، (وبالفتح) مصدر صبغ (من باب منع ونصر وضرب) .

١٦ – فهل تُعين على غَيٍّ هممتُ به ، والغيُّ يزجُرُ أحيانا عن الفشَل

١٧ – إنى أريد طروقَ الحىِّ من إضَمٍ ، وقد حماه رُماةٌ مِن بنى ثُعَل

١٨ – يَحْمُون بالبِيض والسُّمْرِ اللِّدان به

سُودَ الغدائرِ ، حُمْرَ الحَلْى ، والحُلَل

١٩ – فسِرْ بنا فى ذِمامِ الليل مُعتسِفا، فنفحةُ الطيبِ تَهدينا إلى الحِلَل

٢٠ – فالحِبُّ حيثُ العِدَا والأُسْدُ رابضةٌ

حول الكِناسِ ، لهـا غابٌ من الأسَل

---

١٦ – الغى : الضلال : يزجر : يمنع وينهى . الفشل : الجبن وضعف الرأى واختلال التدبير .

١٧ – طروق الحى : المجىء إلى الحى ليلا ، والحى هنا أحد أحياء العرب وهم النازلون بمكان لأنه يحيا بهم إضم (بكسر ففتح) : واد أو جبل بأرض المدينة . ثعل (بضم ففتح) بطن من « حى » مشهورون بجودة الرمى ، وثعل معدول عن ثاعل فهو ممنوع الصرف ، وقد صرفه لحركة الروى .

١٨ – البيض : السيوف والسمر : الرماح ، وكلاهما وصف فى الأصل . اللدان : جمع لدن (مثل صعب وصعاب) واللدن اللين . الغدائر : ضفائر الشعر . الحلى : ما تتحلى به المرأة من أنواع الذهب والفضة . الحلل (بضم ففتح) : جمع حلة وهى ما يلبس من الثياب ، ولا يقال حلة إلا للثوبين فأكثر .

١٩ – الذمام : فى الأصل العهد معتسفا : سائرا فى غير طريق من غير دليل نفحة الطيب : نشره أى انتشار رائحته ، الحلل (بكسر ففتح) : جمع حلة (بالكسر) وهى البيت .

٢٠ – الحب (بالكسر) : الحبيب . العدا : جمع غير قياسى لعدو . الكناس (بكسر الأول) : جحر الظبى . الغاب : الشجر الكثير الملتف ومسكن الأسد بين هذا الشجر : الأسل (بفتحتين) : الرماح سميت بذلك لدقة أطرافها . وأصل الأسل نبات يتخذ منه الحصر شبهت به الرماح .

٢١ ـ تَؤُمُّ ناشئةً بالجِزْع ، قد سُقيتْ   نِصالُها بمياه الغَنْجِ والكَحَلِ

٢٢ ـ قد زاد طيبَ أحاديثِ الكرام بها
ما بالكرائم من جُبْن ومن بَخَلِ

٢٣ ـ تَبيت نارُ الهوى منهن في كبِدٍ   حَرَّى ، ونارُ القرى منهم على القُلَلِ

٢٤ ـ يَقتلْن أنضاءَ حبٍ لاحَرَاكَ بهم ،
وينحـــرون كِرام الخيـــل والإبلِ

٢٥ ـ يُشْفَى لديغُ العوالِي في بيوتِهِمُ   بنَهْلةٍ من غَدير الخمر والعسَلِ

---

٢١ — تؤم : تقصد . الناشئة : الفتية والفتيات . الجزع (بالكسر) : منعطف الوادى . النصال : جمع نصل وهو حديدة السيف والرمح والسهم ما لم يكن له مقبض ، ونصالها أى نصال منها الناشئة . الغنج : ملاحة العينين والدل والغزل . الكحل : السواد الطبيعى يعلو جفون العين .

٢٢ — الكرام : جمع كريم ، والكرائم : جمع كريمة ، وأصل الكرم السخاء . الجبن (بفتح فسكون) ضد الشجاعة . البخل (بفتحتين) : الشح والإمساك كالبخل (بضم فسكون) .

٢٣ — كبد حرى : حارة . القرى : الضيافة . القلل :جمع قلة (بالضم) وهى رأس الجبل ؛ وقلة كل شىء أعلاه .

٢٤ — أنضاء الحب المهزولون منه والواحد نضو . لا حراك بهم : الباء الظرفية .

٢٥ — يشفى : من الشفاء . اللديغ الملدوغ . العوالى : الرماح الطوال ، وأراد منها القدود على سبيل التشبيه . النهلة : الشربة الواحدة ويسمى الشراب الأول نهلا والتالى عللا . الغدير : القطعة من الماء يغادرها السيل ، ومراده من الخمر والعسل ريق الثنايا .

٣٦ ـ لعلّ إلمامة بالجزْع ثانيةً يدِبُّ منها نسيمُ البُرْء فى عِلَلى

٢٧ ـ لا أكرهُ الطعنةَ النَّجلاء ، قد شُفعتْ
بِرَشْقةٍ من نِبـــالِ الأعيُن النُجُل

٢٨ ـ ولا أهابُ الصِّفاحَ البيض ؛ تُسعدنى
باللَّمح من خَلَل الأســتار والـكِلَل

٢٩ ـ ولا أُخِلّ بغزلانٍ ، تُغازِلنى ؛ ولوْ دَهَتْنى أُسودُ الغِيل بالغِيلَ

---

٣٦ ــ الإلمامة : المرة من الإلمام مصدر ألم بالشئ إذا قاربه . الجزع : (بالكسر) منعطف الوادى . العلل : جمع علة ، وهى السقام .

٢٧ ــ نجل (من باب فرح) : اتسع ، والطعنة النجلاء الواسعة الشق ، والعين النجلاء الواسعة وجمعها نجل (مثال حمراء وحمر) وحركها فى البيت إتباعاً لإقامة الوزن . شفعت : جعلت شفعاً ، والشفع الزوج ، أى كانت فرداً فصيرها شفعاً . الرشقة : المرة من الرشق وهو الرمى .

٢٨ ــ الصفاح من السيوف : العراض . اللمح : اختلاس النظر . خلل الأستار (والخلل بفتحتين) وخلالها : أى ما يكون بين أطوائها من ثقوب خفيفة تسمح باختلاس النظر . الكلل (بالكسر) : جمع كلة (بالكسر أيضا) وهى ستر يحاط به البيت كالسور .

٢٩ أخل : مضارع أخل ، يقال : أخل الرجل بكذا تركه ولم يأت به ، أو لصرفيه . الغزلان : جمع غزال وهو ولد الظبية ذكراً كان أو أنثى . تغازلنى : المغازلة محادثة النساء . دهتنى : أصابتنى . الغيل (الأول) (بكسر فسكون) : موطن الأسود وهو الأجة أو الغاب كما سبق فى شرح البيت العشرين . الغيل (الآخر) (بكسر ففتح) : جمع غيلة وهى الاغتيال والخديعة ، ومنه قتله غيلة .

٣٠ - حُبُّ السلامة يَثْنِى همَّ صاحبِه   عن المعالى ، ويُغرِى المرءَ بالكسَلِ

٣١ - فإنْ جنَحْتَ إليـــه فاتَّخِذ نَفَقًا   فى الأرض ، أو سُلَّمًا فى الجوّ ، فاعْتزِلِ

٣٢ - وَدَعْ غِمارَ العلا للمقدِمين عَلَى   ركوبِها ، واقْتَنِعْ منهنّ بالبلَلِ

٣٣ - يَرضَى الذليلُ بخَفْض العَيش مَسْكَنةً ،   والعزُّ عِنـــد رَسِيم الأَيْنُق الذُّلُلِ

---

٣٠ — يثنى : مضارع ثنى أى يعطف ويميل . هم صاحبه : عزمه ، يقال هم بالشيء هما قصده وعزم عليه . يغرى : مضارع أغرى إغراء أى يلزمه ذلك وأصل الإغراء إلصاق الشيء بالشيء .

٣١ — جنحت : ملت (من باب منع وقعد وجلس) . النفق (بفتحتين) : الشق فى الأرض ويكون مدوراً ، فإن كان مستطيلا سمى سربا .

٣٢ — الغمار : جمع غمرة (مثال جمرة وجمار) ، وأصلها الماء الكثير الذى يغمر ما فيه أى يستره ويواريه ، ثم قيل لكل شدة تنمر الفكر : غمرة ، ومنه غمرات الموت . المقدم : اسم فاعل من أقدم على الأمر أى دخل فيه بجرأة .

٣٣ — خفض العيش : ما جاء منه فى سهولة ، وأصل الخفض الوضع وضده الرفع . مسكنة : ذلا وهوانا وضدها العز . رسيم الأينق : ضرب من سيرها والأينق جمع ناقة ، وفى الجمع قلب مكانى ، والرسيم من رسمت الإبل (من باب قعد وجلس) إذا أسرعت فى سيرها . الذلل : (بضمتين) : جمع ذلول ، من الذل (بالكسر) وهو السهولة ضد الصعوبة ، أما الذل (بالضم) فهو المهانة ضد العز .

٣٤ - فادْرَأْ بها فى نُحُورِ البِيدِ جافلةً مُعارِضاتٍ مَثَانِى اللُّجْمِ بالجُدُلِ

٣٥ - إنّ العُلا حدّثتنى — وهى صادقةٌ
فيما تحــدّثُ — أنّ العزَّ فى النُّقَلِ

٣٦ - لو أنّ فى شَرَفِ المَأْوَى بلوغَ مُنىً
لم تبرحِ الشمسُ يوماً دَارَةَ الحَمَلِ

٣٧ - أَهَبْتُ بالحظِّ — لو ناديتُ مُستمِعا —
والحظُّ عَنِّىَ بالجهــالِ فى شُغُلِ

---

٣٤ — ادرأ بها : ادفع بها . البيد : جمع بيداء وهى المفازة . جافلة : مسرعة وأصل الجفول النفور والشراد . معارضات : مقابلات . يقال عرضه أى قام فى جانبه . وجانب كل شىء يسمى عرضه (بالضم) . مثانى : جمع مثنى بتشديد الياء ، والحبال تثنى إذا جمع بين أطرافها . اللجم (بضمتين وسكن للوزن) : جمع لجام وهو زمام الفرس . الجدل (بضمتين) : جمع جديل وهو زمام الجمل من الأدم ، والحبل الجدول المفتول فتلا محكماً .

٣٥ — النقل (بضم ففتح) : جمع نقلة وهى الانتقال من مكان إلى مكان .

٣٦ — المأوى : المحمل وأصله ما يأوى الإنسان وغيره إليه ليلا . المنى : جمع منية (مخففا) وهى ما يتمناه الإنسان لم تبرح : لم تفارق . الحمل (بفتحتين) : أول بروج الشمس ويأتى فى أول الربيع . ودارة الحمل فلكه . وليس للحمل دارة فالدارة (وهى الدائرة المستديرة حول الكوكب) للشمس وتسمى الطفاوة ، وللقمر وتسمى الهالة ، ولعله أراد دارة الشمس فى الحمل فتكون من إضافة الشىء إلى ظرفه كما فى قوله تعالى : « بل مكر الليل والنهار » .

٣٧ — أهبت بالحظ : ناديته ، وأصله من أهاب الراعى بغنمه إذا صاح بها لتقف وهو يقول لها : (هاب هاب) . والحظ النصيب واستعمل فى قوة البخت .

٣٨ - لَعَلَّه إن بَدَا فَضْلِى ونَقْصُهُمُ لِعَيْنِه نامَ عنهمْ ، أوْ تَنَبَّهَ لِى

٣٩ - أُعَلِّلُ النفسَ بالآمالِ ؛ أرْقُبُها ما أضيقَ العيشَ لولا فُسْحةُ الأَمَلِ!

٤٠ - لَمْ أرْتَضِ العيشَ والأيامُ مُقْبلةٌ ،
فكيف أرضَى وقد وَلَّتْ على عَجَلِ !

٤١ - غَالَى بنفسِىَ عِرْفانِى بقيمتِها ؛ فصُنْتُها عنْ رخيصِ القَدْرِ مُبْتَذَلِ

٤٢ - وعادةُ النَّصْلِ أنْ يُزْهَى بجَوهرِه، وليس يَعملُ إلا فى يَدَىْ بَطَلِ

٤٣ - ما كنتُ أُوثِرُ أن يمتدَّ بِى زَمَنِى ؛
حتى أرَى دَوْلَةَ الأَوْغادِ والسَّفَلِ

---

٣٨ — لعله : الضمير يعود على الحظ .

٣٩ - أعلل النفس بالآمال : أسليها بها ، يقال : علله بكذا عن كذا إذا ألهاه تسلية له . أرقبها : أنتظرها والضمير للآمال . فسحة الأمل : سعته ، والأمل : الرجاء وجمعه آمال .

٤٠ — ارتضى العيش ورضيه بمعنى ، وقد استعملهما فى البيت وإن كان حذف مفعول الثانى .

٤١ - غالى بنفسى : ارتفع بها من غالى بالشىء أى طلب له الغلاء وغلاء السعر ارتفاعه وزيادته . عرفانى : فاعل غالى ، والعرفان المعرفة . المبتذل (بصيغة المفعول) : المهان المحتقر .

٤٢ - النصل : السيف . يزهى (بالبناء للمفعول) : يعجب . جوهره : جوهر النصل حديدته التى طبع منها . وهى أصله ، وجوهر كل شىء أصله .

٤٣ — أوثر : أختار . الدولة : أصلها المرة من قولهم : أدالهم الدهر أى جعل لهم النوبة من الاستيلاء والغلبة . الأوغاد : جمع وغد وهو ساقط الهمة . السفل (بكسر ففتح) : جمع سفلة (بكسر فسكون) وهم أراذل الناس .

٤٤ ـ تَقَدَّمتنى أُناسٌ كانَ شَوطُهمُ ... وَراءَ خَطْوِى ، ولو أمشِى على مَهَلِ

٤٥ ـ هذا جزاءُ أمرئٍ ، أقرانُه دَرَجُوا ... مِنْ قَبْلِهِ ، فَتَمَنّى فُسْحـةَ الأَجَلِ

٤٦ ـ فإنْ عَلانِيَ مَن دُونِي فلا عَجَبٌ ! ... لى أُسـوةٌ بانحطاطِ الشمس عن زُحَلِ

٤٧ ـ فاصبر لها غيرَ مُحتالٍ ولا ضَجِرٍ ... فى حادث الدهر ما يُغنِى عن الحِيَلِ

٤٨ ـ أَعْدَى عدوِّكَ أَدْنَى مَن وثِقتَ به ... فحاذِرِ الناسَ واصحبْهم على دَخَلِ

٤٩ ـ وإنما رَجُلُ الدنيا وواحِدُها ... مَن لا يُعَوِّلُ فى الدنيا على رَجُلِ

٥٠ ـ وحُسْنُ ظَنِّك بالأيام مَعْجَزَةٌ ... فظُنَّ شرًّا وكُنْ منها على وَجَلِ

---

٤٤ ـ الشوط : فى الأصل أشد حركة الفرس وقد يسمى الطلق .

٤٥ ـ الأقران : الأكفاء واحدها القرن (بالكسر) وهو كفؤك فى الشجاعة أو الشجاع على العموم . درجوا : هنا بمعنى مضوا عنه بموت أو غيره .

٤٦ ـ أسوة (بضم الهمزة وكسرها) : قدوة . زحل : سابع الأفلاك السبعة السيارة وهو أعلاها وأبعدها ، وترتيب الأفلاك هكذا بحسب القرب من الأرض : القمر ـ عطارد ـ الزهرة ـ الشمس ـ المريخ ـ المشترى ـ زحل .

٤٧ ـ فاصبر لها : الضمير يعود على حوادث الدهر وهى مفهومة مما سبق .

٤٨ ـ أدنى : هنا بمعنى أقرب . على دخل : أى معه ، والدخل (بفتحتين) الغش .

٤٩ ـ يعول : يعتمد ، وأصل التعويل أن تبنى على جدران غيرك ، من قولهم : عال الشىء إذا زاد .

٥٠ ـ معجزة (بفتح الجيم أو كسرها) : عجز (وبفتحها) : سبب العجز كما فى الأثر : الولد مبخلة مجبنة ، والسواك مطهرة للفم مرضاة للرب .

٥١ ـ غاضَ الوفاء وغاض الغَدْرُ وانفرجَتْ
مسافةُ الخُلفِ بين القـــول والعملِ

٥٢ ـ وشانَ صِدقَك عند الناس كِذْبُهُمُ
وهـــل يطابَق مُعوَجٌّ بمعتــدلِ

٥٣ ـ إن كان يَنْجعُ شيءٌ فى ثباتِهمُ   عَلَى العهودِ فسَبْقُ السيفُ لِلعَذَلِ

٥٤ ـ ياوارداً سُؤْرَ عيشٍ كُلُّه كَدَرٌ   أنفقتَ صَفْوَك فى أيامك الأُوَلِ

٥٥ ـ فِيمَ اقتحامُكَ لُجَّ البحرِ تَركَبُه   وأنت تَكفيكَ منه مَصَّةُ الوَشَلِ

٥٦ ـ مُلْكُ القناعةِ لا يُخشَى عليه ولا   يُحتاج فيه إلى الأنصار والخَوَلِ

---

٥١ — غاض : نقص . انفرجت مسافة الخلف : تباعدت . والخلف (بالضم) الاسم من اخلاف الوعد وهو عدم الوفاء به .

٥٢ — شانه : ضد زانه . يطابق (بالبناء للمفعول) : يساوى من المطابقة ، يقال : طابق الحذاء بين قطع النعل إذا ساواها على مقدار واحد وألصق بعضها ببعض .

٥٣ — ينجع : ينفع وزنا ومعنى . ثباتهم : بقائهم ، والثبات ضد الزوال . العذل : اللوم .

٥٤ — سؤر عيش : بقيته ، والسؤر بقية الطعام والشراب : الأول : جمع الأولى :

٥٥ — الاقتحام : الدخول فى الأمر من غير روية . لج البحر : وسطه ومعظمه . المصة : المرة من المص بالشفتين . الوشل (بفتحتين) : الماء القليل المجتمع من القطر الضعيف .

٥٦ — الملك (مثلثا) : حيازة الشيء مع القدرة على الاستبداد به . الأنصار : الأعوان جمع مسموع لنصير . الخول (بفتحتين) : الخدم وزنا ومعنى ، الواحد خائل .

٥٧ ـ ترجو البقاء بِدارٍ لاثَبَاتَ لها   فهل سَمِعتَ بظِلٍّ غيرِ مُنْتَقلِ

٥٨ ـ وياخبيراً ، على الأسرار مُطّلِعاً ،
أُصمُتْ ؛ ففى الصّمتِ مَنْجاةٌ مِن الزَّلَلِ

٥٩ ـ قد رَشّحُوكَ لِأَمرٍ إن فَطِنْتَ له
فارْبأ بنفســـكَ أنْ تَرْعَى مع الهَمَلِ

---

٥٧ — ترجو البقاء بدار لا ثبات لها : على تقدير الاستفهام الانكارى . ودار لا ثبات لها : هى الدنيا .

٥٨ — منجاة : نجاة ـ مصدر ميمى من نجا ينجو . الزلل : الخطأ .

٥٩ — رشحوك : أى ربوك ورجوك ، يقال : فلان يرشح للوزارة أى يربى بالكمالات ليتأهل لها ، وأصله أن ترشح المرأة ولدها بقليل من شراب اللبن ليتمرن على شربه من غير إيجار . فطنت (مثلثة العين) : فهمت اربأ بنفسك : ارتفع بها ، والرباء والربوة والرباوة المرتفع . الهمل (بفتحتين) : الماشية لا راعى لها .

الجو العام للنص :

صاحب النص هو « أبو إسماعيل الحسين بن على الأصبهانى المعروف بالطغرائى[١] » . عمل فى خدمة آل سلجوق الذين استولوا على أطراف الدولة العباسية فى أخرياتها ، ووزر للسلطان مسعود السلجوقى بالموصل ، فلما انتقلت السلطنة إلى أخيه محمود اعتقل الطغرائى زمنا ، ثم قتله بدعوى الإلحاد سنة ٥٠٤ هـ

---

(١) نسبة إلى « الطغراء » وهى كلمة أعجمية معناها (الطرة) وهى ما تكتب فى أعلى الكتاب فوق البسملة بخط معلق فيها اسم السلطان الذى يصدر عنه الكتاب وكان السلاجقة قد اتخذوها ، نقلا من كتاباتهم التركية الأولى .

واللامية أنشأها الطغرائى سنة ٥٠٥ هـ فى بغداد؛ بغرض شرح حاله، وشكوى الزمان وأهله .

جزئيات النص :

(١ – ٩) : بدأ الشاعر فاخرا بأصالة رأيه ، التى تصونه من خطل القول والفعل ، وبفضله الذى يزينه عند التجرد من مجد الدنيا ، وأنكر على نفسه أن يرضى الإقامة فى بغداد ، ولم تعد تصلح له مقاما ، بعدأن ولى الناس عنه ، وتركوه وحيدا . وتذكر أنه قد طال اغترابه ومواصلته الأسفار ، فى سبيل المال ، الذى كان يستعين به على قضاء ذوى الحق عليه ، ولكن زمانه يقنعه الآن بالأوبة ، بعد طول العناء .

(١٠ – ١٥) : تذكر صاحبا له أريبا ، ذا شجاعة وبأس ، وفكاهة ومزاح ، فهو يلبس لكل حال لبوسها ، وقدر أنه كان ينبغى أن يقف اليوم إلى جواره فى محنته ، ولكن صاحبه خذله ، وتركه للهموم الساهرة المؤرقة ، فهو ينكر على صاحبه موقفه ، وإن كان مايزال يطمع فى أن يعينه على ما هو بصدده .

(١٦ – ٢٩) : انفلت الشاعر إلى الغزل ، وبثه واحدة من بنات (الحى) ، فتجمل وتعاطى رقيق الكلام ، وصمم على غزله ، فهو سار فى ذمة الليل إليها ، تهديه نفحات طيبها ، وهى بعد بين صواحبها ، محصنات مصونات يسبين العاشقة بالدل والكحل ، ولكن فيهن جبنا إلى لقاء أمثاله ، فى مقابلة شجاعة حماتهن وجرأتهم ، وفيهن بخلا بالمودة والوصال ، فى مقابلة كرمهم وسخائهم ، وإنه ليلحف السعى إلى محبوبته ، ولو ناشته سيوف هؤلاء الحماة ، فما يبالى إلا طعنات الأعين النجل ، يلمحها على البعد ، أو من خلل الأستار ، وإنه لساع إليها ، ولو أورده سعيه المعاطب .

(٣٠ – ٣٩) : ومن السعى فى سبيل المعالى – على العموم – يحث عليه وعلى طلب هذه المعالى ، فما يحصل المجد والعز والجاه إلا مع المخاطرة والمغامرة والرحلة

والنقلة ، ومن يمل إلى حب السلامة ويؤثر العافية فليس له مكان بين الناس ، وأولى له أن يعتزلهم ، ويقنع بالخمول ، ويرضى بالهون والذل .

ويضرب لنفسه المثل من الشمس السيارة ، لا تقر فى مكان ، لأن فى قرارها ذلها . ويتشجع فيطلب إلى نفسه أن تقسم الآمال وترتقب بلوغها ، ولا تشكو من ضيق العيش ، وتحامل الزمان على أهل الفضل .

(٤٠ — ٤٥) : وحين شمر محال من الطمأنينة وأحس من نفسه جانبا قويا ، جعل يفخر ، فنفى رضاه عن العيش والأيام فى شبابه وماضيه ، وأنكر أن يعقد مثل هذا الرضا فى مشيبه ومقبل أيامه ؛ لأنه يعرف قيمة نفسه ، فهو يصونها من كل رخيص ، على الرغم مما يراه من تقدم أناس عليه كان هو سابقهم ، وذلك لأنه اصطدم العزازة ، فتأخر به زمانه ، وطمع فى فضل العمر وفسحة الأجل حين اخترم أقرانه ، فإذا هو بين من لا يقدرون قدره ، فأخروه ، وقدموا عليه الجهال .

(٤٦ — ٥٣) : وعاد يؤكد شكواه السابقة ، بتسلية نفسه عما أتى من الزمان وجوره ، ودعاها أن تترك القلق والجزع على ما فات ، وتدع الاحتيال لما هو آت ، وتنتظر الفرج ؛ فإن الدهر لا يدوم على حال . وأما الناس فيجب أن يحترس منهم ، ويعتقد الغش فيهم ، ولا يعول فى أمر عليهم ؛ فالرجل الكامل من لم يغتر بما يظهر له من الصداقات ، والعاجز من حسن ظنه بالأيام عند إقبالها ، والحازم من ساء ظنه فيها ، فأخذ حذره من انقلابها وانتكاس نعيمها ودلل على ما يوجب ذلك بما يشاهد من : نقصان الوفاء ، وكثرة الغدر ، وإخلاف الوعد ، ورفض الصدق وإذن ينبغى أن يعامل الناس بالرهبة ، ويؤخذوا بالعنف .

(٥٤ — ٥٩) : يكرز معنى عدم اطمئنانه إلى آتى أيامه ، بعد أن أنفق فيما مضى صفو عيشه ويعجب وينكر على نفسه أن تعود تفكر فى اقتحام الأخطار وركوب المشاق ، والدنيا إلى زوال ، فهى لا تستحق التفكير فيها ، وإنه ليكفيه منها قليل الرزق ، وقناعة القلب . واستمرارا فى منطق الزهد يدعو نفسه إلى الصمت ، ففيه نجاة من كل خطأ ، وإن توهمت نفسه أنها كاسبة من إقبالها على الدنيا

وإعلائها عن صاحبها ، فلتقدر هذه النفس أن من يتعاملون معها عوام همل ، مهما علت منازلهم الاجتماعية ، وما يستحقون أن يخرجوه من دائرته الانسانية إلى دائرتهم الحيوانية .

أهم الصور :

١ — يصور أصالة رأيه ومجادته ومنزلته الفاضلة دائمة ، على الرغم من ظواهر الأمور . ويتخيل فى ذلك الشمس ، تستوى فى الميزة والجوهر ، أول النهار وآخره .

٢ — يصور إقامته فى بغداد فى صورة المتفرد المستوحش ، الذى قل ماله ، فانصرف عنه الناس . ويتخيل فى ذلك السيف العاطل من الحلى ؛ لأن أكثر الناس يزدرى السيف ما لم يكن عليه غشاء منقوش ، مع أن ميزته فى مضائه ، لا فى حليته .

٣ — يصور طول غربته فى صورة من يواصل الأسفار ، ويتخيل فى ذلك حنين الرواحل والركب إلى الأوبة ، وحديث الصحبة لوما له على كثرة السير بهم .

٤ — يصور صاحبته جميلة ، تجمع الحسن من أطرافه ، وطيبة ، وعزيزة الجانب ؛ فشعرها أسود ، وفى عينيها كحل ، وفى قولها وفعلها دلال ، وحليها من الذهب الأحمر ، وملبسها من الحرير الأحمر ، ولا تنتقى هذا اللون إلا ذات البياض ؛ لتزداد به حسنا وإشراقا وهى طيبة فى موطنها ، تضوع رياها عليه ، وهى محمية مصونة ، يحميها أهلها ، فليس نوالها سهلا ميسورا لكل طالب .

٥ — يصور من يؤثر السلامة فى صورة : الكسول ، المعتزل ، المستكين ، القانع من الماء بالبلل .

٦ — يصور معرفته بقيمة نفسه فى صورة السيف المزهو بجوهره ، فلا يظهر نفسه إلا لدى عارف بقدره ، وهذا هو البطل العارف بمواقع الضرب منه .

٧ — يصور تقدم غيره من الأراذل عليه فلا يضار بذلك ، فى صورة الشمس ، لا يخفض من قدرها ارتفاع (زحل) عليها فى مرأى العين .

٨ — يصور الرغبة فى الإقبال على الدنيا مع كفاية قليل منها ، فى صورة من يقتحم اللج ويركب البحر ، مع أن رشفة من القطر ترويه وتذهب عطشه .

٩ — يصور حيازة الزهد فى صورة إيجابية فيجعلها ملكا باقيا ، فالزهد قناعة النفس بما قسم ، والقناعة شىء ذاتى ، لا يفارق النفس فى جميع أحوالها ، ولا تخشى أن تسلبه ، ولا تحتاج فى استدامته إلى مثل ما يحتاج إليه المال أو الملك ، من المشقة فى التحصيل ، والمشقة فى الحفاظ عليه ، أو المداراة بالاحسان ، واصطناع الأعوان .

١٠ — يصور الدنيا داراً زائلة ، وفى هذا يتخيلها ظلا ، والظل غير ثابت ، ولا يقوم بنفسه ؛ لأنه دائما يتبع أصله .

النقد :

١ — الغرض من القصيدة شرح الحال التى كان عليها الشاعر وقت إنشائها ، وشكوى الزمان وأهله وقد بدأها بداية متصلة بهذا ، وكاد يستمر فيه إلى آخرها ، سوى أنه تخلص من المطلع إلى ذكر صاحبه ، وتخلص من ذكر هذا الصاحب إلى الغزل ، فأطال ، ثم عاد — لأدنى ملابسة — إلى ما كان فيه . ولا ندعى أن فى هذا تجديدا ، وإنما هو تلوين بلون حال النفسية ، يظهر أثره فى النظم .

٢ — الظاهرة الواضحة على طول القصيدة إرسال المثل وتضمين الأمثال السابقة . فمن إرسال المثل ما تجده فى الأبيات : (١٦ — ٣٣ — ٣٦ — ٣٧ — ٣٩ — ٤٢ — ٤٦ — ٤٧ — ٤٨ — ٤٩ — ٥٠ — ٥٧ ٥٨ — ٥٩) . ومن التضمين : قوله فى البيت الثالث : (لا ناقتى فيها ولا جملى) ؛ تضمينا المثل : (لا ناقة لى فى هذا ولا جمل) ، وقوله فى البيت التاسع : (ويقنعنى من الغنيمة بعد الكد بالقفل) ؛ تضمينا لمثل : (رضيت من الغنيمة بالإياب) وقوله فى البيت الثالث والخمسين : (سبق السيف العذل) ، من المثل المشهور : (سبق السيف العذل) .

٣ — ولعل المقارنة بين نفس الشاعر والآخرين دعته إلى أن يصطنع الطباق والمقابلة فى أكثر من موضع . راجع الأبيات : (٢ — ٣ — ٥ — ١١ — ١٣ — ١٥ —

١٨ ـ ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٣ ـ ٣٨ ـ ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٤ ـ ٤٦ ـ ٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٥ ـ ٥٨) تجد مصداق هذا والمقابلة كما قررنا تسهم فى كشف المعانى وتقريرها ، إذا جاءت طبيعية غير متكلفة ، ومنها كثير مما تطالعه فى هذه الأبيات .

٤ ـ وبهاتين الظاهرتين ـ إرسال المثل والمقابلة ـ وبالجناس ، الذى ترى منه أمثلة فى القصيدة (فى الأبيات : ١ ـ ٧ ـ ١٤ ـ ٢٢ ـ ٢٩ ـ ٤٠ ـ ٥١) تعتبر هذه القصيدة ممثلة للشعر فى عصرها ويعتمد الشعر فى هذا العصر على البديع ، والإغراق فى الزينة اللفظية ، والولوع بالاستعارة .

فن ألوان البديع الأخر : صحة التقسيم فى البيت الخامس ـ الالتفات فى البيت العاشر ـ الجمع مع التقسيم فى البيت الثالث عشر ـ التدبيج (وهو من النقش بالألوان) فى البيت الثامن عشر .

والاستعارة مبثوثة فى القصيدة ، ومنها : مرح الكرى / سوام النوم / خمو الكرى / عين النجم / صبغ الليل / ذمام الليل / الأسد رابضة حول الكناس لها غاب من الأسل / سقيت نصالها بمياه الغنج والكحل / نار الهوى / لديغ العوالى / الصفاح البيض (العيون) / غزلان تغازلنى / أسود الغيل (الرجال) / غمار العلا / بحور البيد / إن العلا حدثتنى / ترعى مع الهمل .

٥ ـ تناول الطغرائى من مائدة غيره كثيرا من المعانى :

فالبيت السابع من قول الشريف الرضى :

وقفت حتى ضج من لغب نضوى ، وعج بمذلى الركب

والبيت الثامن عشر سبق به المتنبى فى قوله :

من الجآذر فى زى الأعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب

والبيتان ٢٨ و٢٩ يعيدان قول عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمى

فوددت تقبيل السيوف لأنها   لمعت كبارق ثغرك المتبسم

والبيتان ٣٥ و ٣٦ من قول أبي تمام :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق   لديباجتيه ، فاغترب تتجدد

فإنى رأيت الشمس زادت محبة   إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

والبيت الأربعون من بيت أبى العلاء :

وما ازدهيت وأيام الصبا جدد   فكيف أزهى بثوب دارس خلق

والأبيات ٤٣ و ٤٦ و ٥١ من قول المتنبي – على التوالى :

– ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن   يسىء بى فيه كلب وهو محمود

– خذ ما رأيت ودع شيئاً سمعت به   فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

– غاض الوفاء فما تلقاه من أحد   وأعوز الصدق فى الأخبار والقسم

ولا نزعم أن فى هذه المعانى كلها سرقة ؛ فإن هذه المعانى المكرورة على اختلاف الزمان يولدها النظر وإعمال الفكر ، وليس للنظر والفكر زمان دون زمان .